من تراب (٢٨٣) لا تلم كفى إذا السيف نبا ! (*)

الطريق!

لم يستطع كثير من الزملاء أن يخفوا دهشتهم من مظهرى بعد الانتخابات الأخيرة لنقابة المحامين، وربما ظن بعضهم أن هذا الاطمئنان البادى علىّ محض تماسك أحجب به فقط أو أخفى مرارة أو حزنا أو إحباطا !

ولكنى حقيقةً لا أشعر بمرارة أو إحباط، وإن شعرت بالحزن، ولكن على المصير المظلم للمحاماة وللنقابة التى تعرضت لعملية سطو تنبأت بما سوف يصاحبها من اشتباكات ومشاهد مأساوية تلاحقنا الآن كل يوم بل كل ساعة! أجل تمنيت أن أنجح فى الانتخابات لأحقق رسالة الإصلاح التى طمحت إليها، ولكنك مهما فعلت وصنعت وامتلكت، ومهما أبديت وأديت وأخلصت وجاهدت - لا تملك أن تعاند الدهر، والدهر هنا يرمز إلى قوتين كبيرتين تتنازعان نقابة المحامين كل بنفوذه وإمكانياته وطريقته .. الإخوان المسلمون بكتلتهم التصويتية الكبيرة والمصممة، والحكومة بسلطاتها ومالها ونفوذها وآلياتها، وأيضاً بأرتال المتابعين لإشارتها طلبا للغنائم .. فإن فاتت فيكفى الرضا الذى قال فيه الحكيم الساخر المصرى : " إن فاتك الميرى اتمرّغ فى ترابه " !

يبدو أن استحالة معاندة الدهر، هى التى كانت فى ضمير الشاعر حين قال:

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٢٤

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبـــى !

إباء الدهر هنا لم يخل من منفعة بالحسابات الشخصية .. فيبدو أن الحقيقة كانت تحتاج إلى زلزال يكشف الغطاء عن أنه لا صحة للأكاذيب التى بُثت على مدار ثمانى سنوات تدعى بلا منطق أننى رجل الحكومة والإخوان !

لم أك ضيقا بأن يقال إن الإخوان المسلمين يرون تأييد ترشيحى، فالتأييد الذى يأتيك شهادة لك لا عليك، إلا أن تكون أداة طيعة فى اتفاق تبادلى دخلته لتبادل التصويت والولاء . وما يقال عن الإخوان يقال أيضا عن الحكومة .. لم تكن بى حاجة، ولن تكون، لبذل الولاء لأى طيف من أطياف السياسة أو السلطة .. وليس معنى هذا أننى أنشد محاربة هؤلاء أو أولاء، أو أحارب طواحين الهواء كما كان يفعل دون كيشوت فى رائعة سرفانتس .. ولكنى مؤمن برسالة المحاماة، وأن قوتها فى حريتها وحريتها بنيها التى منها يستمدون قدرتهم على المناضلة فى سبيل الحق .. وأن مقتلها فى تكبيل حريتها وحريتهم وتطويقها وتطويقهم .. أما على المستوى الفردى فلا شىء يعادل الإحساس بالواجب، وبقيمة الحرية وجمال الحق فى ذاته .. تعرف تجربة السنين الطويلة أن الحاجة مذلة، أو كما قال الحكيم : " لطالما أذل الحرص أعناق الرجل ".. والكريم لا يحب لعنقه أن تكون ذليلة، ويعرف أن الآدمى إذا كبر نضج، وإذا نضج فهم، وإذا فهمم استغنى، وإذا استغنى تحرر !

الشعور بالتحرر هو سبب الطمأنينة والرضا والارتياح .. من يضن بنفسه حينما ينادى نداء الواجب مخافة العناء أو إشفاقاً من الإخفاق، لن ينعم قط براحة البال، وكيف تأتيه وهو أمام نفسه قبل الآخرين - قد تخاذل وتوانى وضنّ بنفسه عن إنقاذ السفينة المشرفة على الغرق ويتخاطفها أصحاب المطامع والشعارات ! .. أطيب من هذا التخاذل خوض الغمار، وبذل كل ما فى الوسع للإنقاذ والإصلاح ..

الزلزال الذى حدث، لا يخلو مع مأساته المفجعة، من منفعة إيقاظ

الوعى الغائب، ولفت الأنظار للأكاذيب والشعارات ولما يـدبر للمحامـاة ونقابة المحامين .. واستيقاظ الوعى هو مقدمة المقدمات لأى إصـلاح .. الأشخاص تجىء وتذهب، ولكن تبقى قوة المجموع المستمدة مـن يقظـة الوعى وسلامة الفهم .. ولن يخلو الزلزال المروع من المنفعة إذا أعطـى العظة والدرس وأيقظ الوعى الذى غاب طويلا .. أليس يقـال : " ربَّ ضارة نافعة " ؟!

ستمضى الأعوام، وتنطوى الصفحات المرة، وتفتح صـفحات جديـدة وضاءة سلاحها اليقظة والوعى اللذان يتوجب الإمساك بهما .. يومها لـن تضيع هباءً جهود الذين أخلصوا وجاهدوا وانتصروا للحق ولم يشفقوا مما ينالهم من أذى فى سبيل نصرته وإعلائه !